تفسير سورةُ فصلت

من آية (9) إلى آية (18)

اللقاء الثاني

المعنى الإجمالي من آية (1) إلى آية (8):

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكَريمةَ بِقَولِه تعالى: حم، المشتمِلِ على حرفَينِ مِن الحُروفِ المقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ وذلك للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ ذَكَر اللهُ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ مُنزَّلٌ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وأنَّ هذا كِتابٌ فَصَّلَ اللهُ آياتِه وأوضَحَ معانيَه وأحكامَه باللُّغةِ العربيَّةِ، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَربيَّ، فيَنتَفِعونَ ببَيانِه ويَتدبَّرونَه، بشيرًا بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحًا، ونذيرًا بالشَّرِّ لِمَن كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ.

فما كان مِن كفَّارِ قريشٍ إلَّا أنْ أعرَضَ أكثَرُهم عن سَماعِ القُرآنِ، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ، وقالوا: قُلوبُنا في أغطِيةٍ تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ القُرآنِ، وفي آذانِنا ثِقلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ، ومِن بَيْنِنا وبَيْنِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك وعن مُوافَقتِك؛ فاعمَلْ -يا مُحَمَّدُ- بدينِك الَّذي ارتَضَيتَ، إنَّنا عامِلونَ بدِينِنا!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ على هؤلاءِ المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لأولئك المشرِكينَ: إنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم، يُوحَى إلَيَّ أنَّ إلهَكم إلهٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فاسلُكوا الطَّريقَ المستقيمَ مُتوجِّهينَ إليه سُبحانَه، واستَغفِروه؛ وهَلاكٌ وعَذابٌ شَديدٌ للمُشرِكينَ الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم بالإيمانِ باللهِ وطاعتِه، والبُعدِ عن الإشراكِ به، وهم بالآخِرةِ جاحِدونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لهم أجرٌ دائِمٌ غيرُ مُنقَطِعٍ.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾﴿9﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذَكَر سُبحانَه سَفَهَ الكافِرينَ في كُفرِهم بالآخِرةِ؛ شَرَع في ذِكرِ الأدِلَّةِ على قُدرتِه عليها، وعلى كُلِّ ما يُريدُ بخَلقِ الأكوانِ وما فيها، الشَّامِلِ لهم ولمعبوداتِهم مِن الجماداتِ وغَيرِها، الدَّالِّ على أنَّه واحِدٌ لا شريكَ له

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ: أإنَّكم لتَكفُرونَ بالَّذي خَلَق الأرضَ على سَعَتِها وعظَمَتِها مِنَ العَدَمِ في يَومَينِ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: هَمزةُ الاستفهامِ المفتتَحُ بها الكلامُ مُستعمَلةٌ في التَّوبيخِ. ومَجيءُ فِعلِ (تَكفُرونَ) بصِيغةِ المضارِعِ؛ لإفادةِ أنَّ تَجَدُّدَ كُفرِهم يَومًا فيَومًا، مع سُطوعِ الأدِلَّةِ الَّتي تَقتَضي الإقلاعَ عنه؛ أمْرٌ أحَقُّ بالتَّوبيخِ. ومعنى الكُفرِ به الكُفرُ بانفرادِه بالإلهيَّةِ، فلمَّا أشْرَكوا معه آلِهةً كانوا واقِعينَ في إبطالِ إلهيَّتِه؛ لأنَّ التَّعدُّدَ يُنافي حَقيقةَ الإلهيَّةِ، فكأنَّهم أنْكَروا وُجودَه؛ لأنَّهم لَمَّا أنْكَروا صِفاتِ ذاتِه، فقدْ تَصوَّرُوه على غيرِ كُنْهِه.

(وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا) أي: وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تتَّخِذونَهم آلهةً معه. موسوعة التفسير

(ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) أي: ذلك العَظيمُ الَّذي فَعَل ذلك: هو الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدَبِّرُ لجَميعِ المخلوقاتِ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: دليلٌ على وُجوبِ إعلانِ المؤمنِ ما عليه الكفَّارُ مِن الكفرِ باللهِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه لا تجوزُ مُداهَنةُ الكفَّارِ، والمداهَنةُ: سكوتُ الإنسانِ عن معصيةِ العاصي، قال اللهُ تعالى: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ [القلم: 9]؛ فلا يجوزُ للمؤمنِ أنْ يُداهِنَ، والمداهَنةُ في الحقيقةِ أشْبَهُ شَيءٍ لها في وقتِنا الحاضرِ ما يُسَمُّونه بالمجاملةِ أو بالعَلْمنةِ؛ فإنَّ العلمانيِّينَ يقولونَ: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه! الدَّولةُ دولةٌ؛ والدِّينُ دِينٌ! فالدَّولةُ لا بُدَّ أنْ تَتَّحِدَ؛ وأمَّا الدِّينُ فلِكُلِّ دينُه! فلا تُنْكِرْ على الكافرِ، ولا على الفاسقِ! دَعْ كلَّ إنسانٍ يَعْمَلُ ما شاء!! فهذه الآيةَ صريحةٌ في أنَّه يجبُ أنْ نُنكِرَ على الكافرين كُفْرَهم؛ وألَّا نُداهِنَهم.

الفرق بين المجاملة والمداهنة: ❍المداهنة: التنازل عن بعض أمور الدين لإرضاء الطرف الآخر قال تعالى: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) وهذا محرم.

❍المداهنة هي ترك الحق من أجل الدنيا، وأن تضيع المبادئ والمثل من أجل الدنيا أي يجامل الآخرين على حساب الحق ولا يخبرهم به لحساب مصلحة الشخصية.

❍فهو يرى الانحراف والخطأ والباطل في أهله أو أولاده أو أصدقائه ويأتي فيثني على هذا الخطأ ويمتدحه إلى حد التملق فيما يقول وهو يعلم أنه ليس بصادق في قوله والمرجع في المسألة هو الكذب وجماع النفاق هو الكذب.

❍أما المجاملة: التنازل عن بعض أمور الدنيا لإرضاء الطرف الآخر وهذا جائز.

❍وهناك أمر آخر أشمل من المجاملة وهو المداراة والمداراة لها أهداف ومقاصد وفيها جانب حسن الخلق ورقة الطبع والاحتراز عن إيذاء الآخرين وفيها ملاينة بمعنى أنك تبذل الدنيا من أجل الحصول على الدنيا أو الحق أو الحصول عليهما معاً فأنت تجاري وتجامل من أجل نشر الخير ... وقد تكون (المداراة) عملاً شرعياً فأنت قد تداري وأنت تريد وجه الله يقول الله تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) وعندما يكون المداري هدفه النصيحة في الدين يكون متعبداً والآية تدل على ذلك.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾﴿10﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما هم به مُقِرُّونَ مِن إبداعِ هذه الأرضِ؛ أتْبَعَه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الصُّنعِ العَجيبِ والفِعلِ البَديعِ بعدَ ذلك.

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا) أي: وجَعَل في الأرضِ جِبالًا ثوابِتَ مِن فَوقِ ظَهْرِها. موسوعة التفسير

قال الماوَرْدي: (وفي تسميتِها رواسِيَ وجهانِ؛ أحدُهما: لعُلُوِّ رُؤوسِها. الثَّاني: لأنَّ الأرضَ بها راسيةٌ، أو لأنَّها على الأرضِ ثابتةٌ راسيةٌ).

كما قال تعالى: وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [النحل: 15].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا [النبأ: 6، 7].

(وَبَارَكَ فِيهَا) أي: وبارَك اللهُ في الأرضِ بما خَلَق فيها مِن المنافِعِ والخَيراتِ الكثيرةِ الدَّائِمةِ لأهْلِها. موسوعة التفسير

(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) أي: وخَلَق اللهُ فيها أرزاقَها للنَّاسِ والدَّوابِّ، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ، فهما معَ اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربعةُ أيَّامٍ. موسوعة التفسير

قال الماوَرْدي: (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: قَدَّر أرزاقَ أهلِها، قاله الحسَنُ. الثَّاني: قدَّر فيها مصالِحَها؛ مِن جبالِها وبحارِها وأنهارِها، وشَجَرِها ودوابِّها، قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: قَدَّر فيها أقواتَها مِن المطَرِ، قاله مجاهدٌ. الرَّابعُ: قدَّر في كلِّ بَلدةٍ منها ما لم يجعَلْه في الأُخرَى؛ ليعيشَ بَعضُهم مِن بَعضٍ بالتِّجارةِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، قاله عِكْرِمةُ).

(سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) أي: أربعةِ أيَّامٍ استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نُقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سألَ في كَمْ خُلِقت الأرضُ بما فيها. موسوعة التفسير

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾﴿11﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى كيفيَّةَ تَخليقِ الأرضِ وما فيها؛ أتْبَعَه بكيفيَّةِ تَخليقِ السَّمَواتِ

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) أي: ثمَّ ارتفَع الله وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (اسْتَوَى تَرِدُ في القرآنِ على ثلاثةِ مَعانٍ: فتارةً لا تُعدَّى بالحرفِ، فيَكونُ معناها: الكمالَ والتَّمامَ، كما في قولِه عن موسى: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى [القصص: 14]. وتارةً تكونُ بمعنى: عَلا وارتفَعَ، وذلك إذا عُدِّيَتْ بـ «على»، كما في قولِه تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف: 54]،

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ [الزخرف: 13]. وتارةً تكونُ بمعنى: قصَدَ، كما إذا عُدِّيَتْ بـ «إلى»، كما في هذه الآيةِ، أي: لَمَّا خلَقَ تعالى الأرضَ، قصَد إلى خلْقِ السَّمواتِ).

(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) أي: فقال اللهُ للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خَلَقَهما: استَجيبا لأَمْري، وانقادا لِطاعَتي اختيارًا أو جَبرًا. موسوعة التفسير

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: إنَّ اللهَ تعالى قال: أمَّا أنتِ يا سماءُ، فأطْلِعي شمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ، وأمَّا أنتِ يا أرضُ، فشقِّقي أنهارَكِ، وأخرجي ثمارَكِ ونباتَكِ). ((الوسيط))

(قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أي: قالت السَّماءُ والأرضُ: استَجَبْنا لأمْرِك، وانقَدْنا لطاعتِك، فلا نخالِفُ إرادتَك رَبَّنا. موسوعة التفسير

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾﴿12﴾

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) أي: ففرَغ الله مِن خَلْقِهنَّ سَبْعَ سَمواتٍ، وأكْمَلهنَّ وأتمَّهنَّ في يَومَينِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ [البقرة: 29].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (خَلَق الأرضَ في يومَينِ، ثمَّ خَلَق السَّماءَ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهنَّ في يومَينِ آخَرَينِ، ثمَّ دحا الأرضَ؛ ودَحْوُها: أنْ أخرَجَ منها الماءَ والمرعَى، وخَلَق الجِبالَ والجِمالَ والآكامَ وما بَيْنَهما في يومَينِ آخَرَينِ، فذلك قَولُه: دَحَاهَا [النازعات: 30]، وقَولُه: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ [فصلت: 9]، فجُعِلت الأرضُ وما فيها مِن شَيءٍ في أربعةِ أيَّامٍ، وخُلِقَت السَّمواتُ في يَومَينِ). رواه البخاري

ويزعم اليهود في كتابهم أن الله عز وجل تعب من خلق السماوات والأرض، فاستراح في اليوم السابع، قد ردَّ الله عزَّ وجلَّ عليهم وبيَّن بطلان قولهم هذا في قوله عزَّ وجلَّ: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) [ق: 38]

(وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) أي: وأمَر اللهُ في كُلِّ سَماءٍ مِن السَّمَواتِ السَّبْعِ بما أرادَه مِنَ الخَلقِ والتَّدبيرِ. موسوعة التفسير

(وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا) أي: وزَيَّنَ اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المنيرةِ، وحَفِظَها بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المسترِقةِ للسَّمْعِ مِن المَلَإِ الأعلى. موسوعة التفسير

إن اللهَ تعالى خَلَق هذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ؛ الفائدةُ الأُولى: زِينةً للسَّماءِ. الفائدةُ الثَّانيةُ: لحِفْظِ السَّمَواتِ مِن الشَّياطينِ. والفائدةُ الثَّالثةُ: ذَكَرها اللهُ تعالى في سورةِ (النَّحلِ) في قَولِه تعالى: وَعَلَامَاتٍ

وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [النحل: 16]؛ ولهذا قال قَتادةُ -وهو مِن أئمَّةِ التَّابِعينَ-: (خَلَق اللهُ هذه النُّجومَ لثلاثٍ؛ زينةً للسَّماءِ، ورُجومًا للشَّياطينِ، وعَلاماتٍ يُهتَدَى بها).

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ [الحجر: 16 - 18].

وقال اللهُ تبارك وتعالى: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ [الملك: 5].

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) أي: ذلك الشَّأنُ العَظيمُ البَديعُ الَّذي تقدَّمَ ذِكرُه مِن خَلْقِ السَّماءِ والأرضِ والنُّجومِ: هو تَقديرُ العَزيزِ ذي القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرِ الغالِبِ لكُلِّ شَيءٍ، الممتَنِعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ العَليمِ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ مَصالحِ خَلْقِه، وعِلمُه بجَميعِ حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: إنَّ عِلْمَنا بأنَّ اللهَ سبحانه الْعَلِيمِ يَستَوجِبُ -مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ- بالنِّسبةِ للعبدِ: أنْ يَخافَ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنْ يَقومَ بطاعتِه، وأنْ يَدَعَ معصيتَه؛ لأنَّه يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ به، بل إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِن نَفْسِك ما لا تَعْلَمُه أنت؛ فيَعْلَمُ مُستقبلَك ومآلَك وحالَك، وهذا يُوجِبُ للعبدِ أنْ يخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ.

مسألة ايهما خلق قبل الآخر الأرض أم السماء؟

دل القرآن العظيم في موضعين منه على أن الأرض مخلوقة قبل السماء، وذلك في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، وقوله تعالى:(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[فصلت: 9-11].وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى في سورة النازعات: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)[النازعات: 27- 31] فالأرض خلقت أولا، غير مدحُوّة ، ثم خلقت السماء، ثم دُحيت الأرض، وذلك بإخراج الماء منها والمرعى، أي الأشجار والزراعات ونحوها. ومعنى قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) أي: أصل الأرض، مع تقدير ما سيكون عليها من أرزاق وغير ذلك. فـ {خَلَقَ} هنا بمعنى: قدّر، وهذا موافق لقوله في سورة فصلت: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}. قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: " اعلم أولا أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين آية السجدة [أي آية سورة فصلت] وآية النازعات، فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولا قبل السماء غير مدحُوَّة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعا في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك. فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء.

في قَولِه تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

قال ابن عثيمين: أنَّ مدَّةَ خَلْقِ السَّمواتِ أقَلُّ مِن مدَّةِ خَلْقِ الأرضِ؛ معَ أنَّ السَّمواتِ أعظَمُ، لكنْ لَمَّا كانتِ الأرضُ موضوعةً للأنامِ -كما قال تعالى: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ [الرحمن: 10] - كان خَلْقُها أكثرَ مدَّةً؛ لبيانِ عنايةِ اللهِ تعالى بهذه الأرضِ الَّتي وَضَعها للأنامِ، ولِيَعْلَمَ الأنامُ الَّذين على الأرضِ أنَّ العِبرةَ بالإتقانِ لا بالسُّرعةِ.

قال البقاعي: وأيضًا لأجْلِ التَّنبيهِ على ما في المقَدَّرِ مِن المقدورِ وعجائِبِ الأُمورِ، وليُعلَمَ أيضًا بخَلقِ السَّماءِ -الَّتي هي أكبَرُ جِرمًا، وأتقَنُ جِسمًا، وأعظَمُ زينةً، وأكثَرُ مَنافِعَ بما لا يُقايَسُ- في أقَلَّ مِن مُدَّةِ خَلقِ الأرضِ: أنَّ خَلْقَها في تلك المدَّةِ ليس للعَجزِ عن إيجادِها في أقَلَّ مِن اللَّمحِ، بل لحِكَمٍ تَعجِزُ عن حَملِها العُقولُ. وقيل غيرُ ذلك.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ﴿13﴾

قال المراغي: بعدَ أنْ أنكَرَ اللهُ عليهم عِبادةَ الأندادِ والأوثانِ، وطَلَب إليهم ألَّا يَعبُدوا إلَّا اللهَ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، إلى غيرِ ذلك مِمَّا ذَكَر مِن دَلائِلِ ألوهيَّتِه ووَحدانيَّتِه، ثمَّ أعرَضوا عن كُلِّ ذلك؛ لم يَبقَ حينئذٍ طَريقٌ للعِلاجِ، ومِن ثَمَّ أمَرَ رَسولَه أن يُنذِرَهم بحُلولِ شَديدِ النِّقَمِ بهم إنْ هم أصَرُّوا على عِنادِهم (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) أي: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحَمَّدُ- عن الحَقِّ فلم يُؤمِنوا، وأصَرُّوا على باطِلِهم بعدَ هذا البَيانِ التَّامِّ في هذه الآياتِ التي دَلَّت على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه، وغَيرِها مِن صِفاتِ كَمالِه؛ فقُلْ لهم: حَذَّرْتُكم وخَوَّفْتُكم عَذابًا شَديدًا وَقعُه، فيُهلِكُكم ويَستأصِلُكم كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ. موسوعة التفسير

وقال ابن عُثَيمين: (المِثْلِيَّةُ هنا لا تَقتَضي -واللهُ أعلَمُ- المُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بل مِثليَّةٌ في أصْلِ الهَلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تعالى أنذَرَهم مِثلَ صاعِقةِ عادٍ وثَمودَ، وصاعِقةُ عادٍ وثَمودَ نوعان: الرَّجفةُ والرِّيحُ الشَّديدةُ. الذين أُهلِكوا بالرِّيحِ الشَّديدةِ هُم عادٌ، والذين أُهلِكوا بالرَّجفةِ والصَّيحةِ هُم ثَمودُ).

قال ابن حيان: خُصَّ بالذِّكرِ مِنَ الأُمَمِ المهلَكةِ: عادٌ وثَمودُ؛ لِعِلْمِ قُرَيشٍ بحالِهما، ولِوقوعِهم على بِلادِهم في (اليَمَنِ) وفي (الحِجْرِ).

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿14﴾

(إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) أي: وذلك حينَ جاءتْ عادًا وثمودَ رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في دَعوتِهم مِن كلِّ جِهةٍ بألَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ [الأعراف: 65].

وقال سُبحانَه: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعراف: 73].

(قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً) أي: قال كُفَّارُ عادٍ وثَمودَ لِرُسُلِهم حينَ دَعَوهم إلى تَوحيدِ اللهِ تعالى: لو شاء رَبُّنا أنْ يأمُرَنا بعِبادتِه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُرونَنا بذلك، ولم يُرسِلْ إلينا بَشَرًا مِثْلَنا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى عن قَومِ نوحٍ عليه السَّلامُ: فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ [المؤمنون: 24].

وقال عزَّ وجلَّ: كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا [التغابن: 6].

(فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) أي: فإنَّا -إذَنْ- كافِرونَ بتَوحيدِ اللهِ الذي زعَمْتُم أنَّه أرسَلَكم به، ولا نَتَّبِعُكم وأنتم بشرٌ مِثلُنا. موسوعة التفسير

كما قال تعالَى عن عادٍ قَومِ هُودٍ عليه السَّلامُ: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [الأعراف: 66].

وقال سُبحانَه عن ثمودَ قَومِ صالحٍ عليه السَّلامُ: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [الأعراف: 75، 76].

وقال سُبحانَه: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [سبأ: 34].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿15﴾

قال ابن عاشور: مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: بعْدَ أنْ حَكَى عن عادٍ وثَمودَ ما اشتَرَكَ فيه الأُمَّتانِ مِن المكابَرةِ والإصرارِ على الكُفْرِ؛ فصَّلَ هنا بعضَ ما اختَصَّتْ به كلُّ أُمَّةٍ منهما مِن صُورةِ الكُفْرِ، وذكَرَ مِن ذلك ما له مُناسَبةٌ لِمَا حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهما مِن العذابِ

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أي: فأمَّا عادٌ فتكَبَّروا وتجَبَّروا وعَتَوْا في الأرضِ ظُلمًا دونَ أن يكونَ لهم الحَقُّ في ذلك. موسوعة التفسير

الكبر والاستكبار صفة ذميمة وخلق سيء حذر منه القرآن الكريم والسنة النبوية فهو من أقبح الخصال البشرية ومن الرذائل التي لا ينبغي للإنسان الاتصاف بها، له آثار مدمرة وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، والكبر هو الامتناع عن قبول الحق مُعاندة وتَكَبُّراً والتعالي على الخلق وعدم التواضع والشعور بأن له منزلة أعلى من غيره دون وجه حق والسخرية منهم والانتقاص من حقهم والكبر يعني

كذلك العجب بالمال والسلطان والغرور بالقوة والأتباع والحسب والأنساب وهو أول معصية عُصيَ الله بها وبها طرد إبليس من رحمة الله وكتب عليه الذل والهوان في الدنيا والآخرة.

وقال عز من قائل: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف: 146]

ويقول – عليه الصلاة والسلام –: ((يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ)) (صحيح الترمذي)

(وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) أي: وقالوا –ظَنًّا منهم أنَّهم يَمتَنِعونَ بقُوَّتِهم مِن عذابِ اللهِ، وأنَّه لا يَغلِبُهم أحَدٌ–: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً. موسوعة التفسير

كما قال اللهُ سبحانَه حاكيًا ما قال لهم رسولُهم هودٌ عليه السلامُ: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [الشعراء: 128 – 130].

قال الواحدي: فقال الله تعالى، ردًّا عليهم

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) أي: أوَلَم يرَ كُفَّارُ عادٍ أنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَهم مِنَ العَدَمِ –حيثُ لم يكونوا شَيئًا–، وأعطاهم ما أعطاهم مِنَ القُوَّةِ: هو أشَدُّ مِنهم قُوَّةً. موسوعة التفسير

قال السعدي: (فلولا خَلْقُه إيَّاهم لم يُوجَدوا، فلو نَظَروا إلى هذه الحالِ نظَرًا صَحيحًا لم يغتَرُّوا بقُوَّتِهم).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: إنكارُ عَدَمِ عِلمِهم بأنَّ اللهَ أشَدُّ منهم قُوَّةً، حيثُ أعرَضوا عن رِسالةِ رَسولِ رَبِّهم وعن إنذارِه إيَّاهم إعراضَ مَن لا يكتَرِثُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم لو حَسَبوا لذلك حِسابَه لتوقَّعَوا عذابَه، فلأقبَلوا على النَّظَرِ في دلائِلِ صِدقِ رَسولِهم).

(وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) أي: وكان كُفَّارُ عادٍ مُصِرِّينَ على الجُحودِ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رُسُلِه فيما دَعَوْهم إليه مِنَ الحَقِّ. موسوعة التفسير

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ﴿16﴾

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ) أي: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عَظيمةً باردةً، شَديدةَ الصَّوتِ والهُبوبِ، في أيَّامٍ مَشؤوماتٍ عليهم، أصابَهم فيها سُوءٌ وعَذابٌ شَديدٌ؛ فأُهلِكوا فيها. موسوعة التفسير

وقال ابنُ عاشور أيضًا: (وُصِفتْ تِلك الأيَّامُ بأنَّها نَحِساتٌ؛ لِأنَّها لم يَحدُثْ فيها إلَّا السُّوءُ لهم مِن إصابةِ آلامِ الهَشمِ المحَقَّقِ إفضاؤُه إلى الموتِ، ومُشاهَدةِ الأمواتِ مِن ذَويهم، ومَوتِ أنعامِهم، واقتِلاعِ نَخيلِهم).

كما قال تبارَك وتعالَى: رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ [الأحقاف: 24، 25].

وقال سُبحانَه: وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ [الذاريات: 41، 42].

وقال تعالَى: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [القمر: 19، 20].

(لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي: عَذَّبْناهم بذلك؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم ويَفضَحُهم في الحياةِ الدُّنيا. موسوعة التفسير

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزْيًا، وأعظَمُ إهانةً وإذلالًا لهم، ولا يَنصُرُهم مِنَ اللهِ ناصِرٌ؛ فيدفَعَ عنهم عذابَه، أو يُنقِذَهم منه. موسوعة التفسير

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿17﴾

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم ودَلَلْناهم على طَريقِ الحَقِّ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: هذا هُدًى بعدَ البَيانِ والدَّلالةِ، وهو شَرْطٌ، لا مُوجِبٌ؛ فإنَّه إنْ لم يقتَرِنْ به هُدًى آخَرُ بَعدَه لم يَحصُلْ به كَمالُ الاهتِداءِ، وهو هُدى التَّوفيقِ والإلهامِ؛ فهدايةُ البيانِ والدَّلالةِ -التي أقام اللهُ بها حُجَّتَه على عِبادِه- لا تَستَلْزِمُ الاهتداءَ التَّامَّ.

قال ابنُ عاشور: (لَمَّا كان حالُ الأُمَّتَيْنِ واحِدًا في عدَمِ قَبولِ الإرشادِ مِن جانِبِ اللهِ تعالى، كما أشار إليه قَولُه تعالى: قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً [فصلت: 14]، كان الإخبارُ عن ثمودَ بأنَّ اللهَ هداهم مُقتَضيًا أنَّه هدَى عادًا مِثلَما هدَى ثمودَ، وأنَّ عادًا استحَبُّوا العَمى على الهُدى مِثلَما استحبَّت ثمودُ). كما قال تعالَى: وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ [العنكبوت: 38].

(مُسْتَبْصِرِينَ) أي: وكانت لهم عقول يستطيعون التمييز بها بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، ولكنهم لم يستعملوها فيما خلقت له، وإنما استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الغي على الرشد، فأخذهم الله – تعالى – أخذ عزيز مقتدر. الطنطاوي

(فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) أي: فاختاروا وآثَرُوا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدَى، مع تَبَيُّنِ الحَقِّ لهم. موسوعة التفسير

(فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) أي: فأهلَكهم اللهُ بصَيحةِ عَذابٍ أذَلَّهم وأهانَهم بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِنَ الآثامِ؛ بكُفرِهم باللهِ، ومَعصيتِهم له، وتَكذيبِهم رَسولَه، وعَقْرِهم النَّاقةَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالَى: وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [هود: 67، 68].

وقال سُبحانَه: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ [القمر: 31].

قال الشنقيطي: عبَّرَ عن الهلاكِ الذي أهلَكَ به ثَمودَ بعِباراتٍ مُختَلفةٍ؛ فذَكَرَه هنا باسمِ (الصَّاعِقةِ)، وعبَّرَ عنه بالصَّيحةِ في آياتٍ أُخرَى مِن كِتابِه، وعَبَّرَ عنه بالرَّجفةِ، وعبَّرَ عنه بالتَّدميرِ، وعبَّرَ عنه بالطَّاغيةِ، وعبَّرَ عنه بالدَّمدَمةِ، ... ومعنى هذه العِباراتِ كُلِّها راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو أنَّ الله أرسَلَ عليهم صَيحةً أهلَكَتْهم، والصَّيحةُ: الصَّوتُ المزعِجُ المهلِكُ. والصَّاعِقةُ تُطلَقُ أيضًا على الصَّوتِ المزعِجِ المهلِكِ، وعلى النَّارِ المحرِقةِ، وعليهما معًا؛ ولشِدَّةِ عِظَمِ الصَّيحةِ وهَولِها مِن فَوقِهم رَجَفَت بهم الأرضُ مِن تحتِهم، أي: تحرَّكَت حَرَكةً قَويَّةً؛ فاجتمع فيها أنَّها صَيحةٌ وصاعِقةٌ ورَجفةٌ، وكونُ ذلك تدميرًا واضِحٌ. وقيل لها: طاغِيةٌ؛ لأنَّها واقِعةٌ مُجاوِزةٌ للحَدِّ في القُوَّةِ وشِدَّةِ الإهلاكِ.

قال ابن عثيمين: إثباتُ أنَّ العَمَلَ كَسْبٌ للإنسانِ؛ لِقَولِه تعالَى: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه إذا كان العَمَلُ كَسْبًا للإنسانِ فإنَّه يَجِبُ عليه بمُقتَضى العَقلِ -كما هو مُقتَضى الشَّرعِ- أنْ يَسعَى إلى الكَسبِ المفيدِ، لا إلى الكَسْبِ الضَّارِّ، كما كان يَفعَلُ في أُمورِ الدُّنيا؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضَلَّ في عَقْلِه ودِينِه مَنِ احتجَّ بالقَدَرِ على معاصي اللهِ، ولم يَحتَجَّ بالقَدَرِ على أُمورِ الدُّنيا؛ ففي أمورِ الدُّنيا يَعمَلُ ويَكدَحُ ويَسعَى لِمَا فيه المنفعةُ والمصلَحةُ، لكنْ في أُمورِ الآخِرةِ يَتكاسَلُ مُحتَجًّا بالقَدَرِ.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿18﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا ذَكَر اللَّهُ سُبحانَه الوَعيدَ أرْدَفه بالوَعدِ، فقال تعالى:

(وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) أي: ونَجَّينا مِن العَذابِ صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه الَّذين كانوا يَعبُدونَ اللهَ وَحْدَه، ويَمتَثِلونَ أمْرَه، ويجتَنِبونَ الشِّركَ به ومَعصيتَه. موسوعة التفسير

وَعَدَ الله -تعالى- عباده المؤمنين بالنجاةِ من الشدائد والكرب في الدنيا والآخرة.

قال ابن عاشور: إنجاءُ المؤمِنينَ مِن عادٍ وثمودَ.

كما قال تعالَى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ [هود: 66].

قال ابن عثيمين: أنَّ الإيمانَ والتقوَى سببٌ للنَّجاةِ، ومثلُه قولُه تعالى: وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ [الزمر: 61]، وفيه أيضًا أنَّ الإيمانَ وحدَه لا يكفي؛ بل لا بُدَّ مِن إيمانٍ وتقوَى.

ومن عرف قيمة دينه واستشعر مكانته اعتز به وتحلى بآدابه، وسعى في إظهار محاسنه والدعوة إليه وبثه ونشره، ونافح عنه ولم يكن ممن هان عليه دينه وأصبح يخجل منه ويتحرج من أحكامه ويستهين بشعائره، ولا هو ممن يأكل بدينه ولا يجامل أحدا على حسابه، ولا يتنازل عن قيمه وثوابته، ولا يبذله رخيصا مهانا، ولا يتزلف به لِنَيْل رضا مخلوق طمعًا في دنيا زائلة ومتاع قليل، بل شأنه أن يصون دينه ويحفظه ليسلم ويحذر من أن يُفتن في دينه فيندم.

ومتى ما أراد العبد أن يحفظه اللهُ فعليه أن يحفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه، قال ابن رجب – رحمه الله–: "إن الله –عز وجل– يحفظ المؤمنَ الحافظَ لحدود دينه وَيَحُولُ بينَه وبينَ ما يُفسد عليه دينَه بأنواع من الحفظ، وقد لا يشعر العبدُ ببعضها، وقد يكون كارهًا له".

قصة قوم عاد:

سكن قوم عاد في اليمن وتحديداً في الأحقاف؛ وهو جبل الرمل، حيث متّعهم الله –سبحانه– بقوّةٍ في الأبدان، وبسط لهم في المال الشيء الكثير، حتى أصبحوا أصحاب قوّة ماديّة وبدنيّة، حيث كانوا أصحاب أكبر قوّة عسكريّة في زمانهم، وكانت لهم الخِلافة في الأرض من بعد قوم نوح عليه السلام، وحينما دعاهم هود –عليه السلام– أخبرهم بأنّ قوّتهم لن تغنيَ عنهم من الله شيئاً، فقال الله تعالى: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ)، وذكر الله –تعالى– في كتابه صور قوّتهم وعمرانهم في عدّة آياتٍ؛ منها قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)،وقال: (أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ*وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)، وقال أيضاً: (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)، حيث كانت قوّة قوم عاد لا تضاهيها أي قوّة في ذلك الزمان، وامتازوا أيضاً بمتاع الحياة الذي انتشر بسبب الرخاء والقوة والقدرة، وكذلك تربية المواشي، وبناء المصانع والعمران، والشعور بالحضارة العظيمة والسيطرة على جميع مناحي الحياة، حيث كان كلّ ذلك ابتلاءً لهم؛ ليعلم الله –تعالى– من يُرجع الفضل والقوّة إليه، ومن يغترّ بعظمته وقدرته وينسب ذلك إلى نفسه. أُرسل هود –عليه السلام– إلى قومه برسالة التوحيد لله تعالى، وداعياً لهم بشكر النعم وردّ فضلها إلى الله، وقال العلماء إنّ هوداً –عليه السلام– لم يذكر له معجزة في القرآن، إلا أنّ معجزته قد تكون ظهوره بين قومه، متحدّياً لهم، حيث قال الله –تعالى– في هود عليه السلام: (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ)، فرغم كلّ القوّة التي كانت عند قوم عاد إلّا أنّه لم يستطع أحد أن يؤذي هود –عليه السلام– بأي بسوء بالرغم من أنّه كان منفرداً يواجه قوماً بأكمله، وقال العالم الألوسي في تفسير ذلك: أيّاً ما كان فذاك من أعظم المعجزات، وبناءً على ذلك فهود –عليه السلام– كان منفرداً بين جمع من العتاة الجبابرة العطاش إلى إراقة دمه، وقد خاطبهم بتوحيد الله –تعالى– وحقّرهم وآلهتهم وهيّجهم على ما هيّجهم، فلم يستطيعوا مباشرة شيء ممّا كلّفوه، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيّناً. كفر قوم عاد لم يستجب قوم عاد لأمر نبيّهم هود عليه السلام، بل بادروه بالاتهامات والشتائم والاستهزاء، فقال الله تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)، فكان ذلك من سوء أدبهم مع الله –تعالى– ونبيّه الكريم، ورُوي أنّ قوم عاد كانوا أوّل من عبد الأصنام بعد قوم نوح عليه السلام، فقد مكثت الأرض عشرة قرون بين آدم ونوح –عليهما السلام– على توحيد الله تعالى، ثمّ جاء قوم نوح فعبدوا الأصنام فأهلكهم الله جميعاً، وأبقى المؤمنين الموحّدين، ثمّ جاء قوم عاد بعبادة الأصنام، وتبجّحوا بذلك، وسخروا من نبيّهم الذي دعاهم إلى التوحيد وترك الشرك بالله، حيث قابل هود –عليه السلام– التكذيب والاستهزاء بالإحسان

واللين في الدعوة، والعمل على تذكير وإرشاد قومه إلى طريق الهداية؛ لأنّ الصبر والاحتساب من سمات الرسل عليهم السلام، قال الله تعالى: (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً). وإنّ عقوبة الله -تعالى- تكون للظالمين بما يناسب ظلمهم وإعراضهم عن دعوة نبيّهم، فقد كان قوم عاد قوماً جبّارين وأقوياء، وأصحاب بسطة في العمران والأبدان، وبعد أن كفروا بنعم الله -تعالى- عليهم عذّبهم الله بسبب ذلك، حيث قال الله تعالى: (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)، وكانت عاقبة أمرهم بأن سلّط الله عليهم الريح، قال الله تعالى: (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ*فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)، فكان هلاك كلّ قوّتهم وعظمتهم بأبسط الأشياء وأضعفها، وهو الهواء الذي يتنفسونه ولا يكادون يكترثون به ويشعرون به، حيث سُلّط عليهم الريح الذي استمرّ ثمانية أيام، حتى اقتُلعت بيوتهم وحصونهم، فكان الواحد منهم يُرفع إلى السماء ثمّ يسقط أرضاً، فينكسر رأسه، وقد حملت الرّيح بعضهم فألقته في البحر، فلم يبق أي أحد من الكفار والجاحدين بالله تعالى، قال الله تعالى: (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ).

وأما ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام:

أرسل الله -عز وجلّ- نبي الله صالح -عليه السلام- إلى قومه ثمود، وثمود قبيلةٌ عربيةٌ كانت تسكن الحِجر الذي يقع بين الحجاز وتبوك، أو الشام، وأرسل الله -تعالى- إليهم نبي الله صالح، قال -تعالى-: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحًا)، وكانوا يتّخذون في السّهل القصور، وينحتون في الجبال البيوت، فهم أصحاب نعمةٍ وحضارة عمرانية.

قصة قوم ثمود مع الناقة:

دعا صالح -عليه السلام- قومه إلى الهداية، فصدّوا عنه وصاروا يتكبّرون عليه ويستهزئون بدعوته واتّباعهم لبشرٍ مثلهم، ورموه بالكذب، وطلبوا منه معجزة، وهي أن يُخرج لهم من صخرةٍ صمّاء ملساء ناقة، وفعلاً دعا صالح -عليه السلام- ربّه أن يُخرج من الصخرة ناقة، واستجاب الله -تعالى- لنبيّه صالح -عليه السلام-، فتمخّضت الصخرة كأنّها تَلِد، وأخرجت الناقة، وكانت هذه الناقة ابتلاءً واختباراً لهم، وكانت تشرب من واديهم يوماً وتنتج لهم لبناً مقابل ذلك اليوم، وهم يشربون من ذلك الوادي في اليوم التالي. وقال لهم نبيّهم كما ورد في الآية في قول الله -تعالى-: (قالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللَّهَ ما لَكُم مِن إِلهٍ غَيرُهُ قَد جاءَتكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُم هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُم آيَةً فَذَروها تَأكُل في أَرضِ اللَّهِ وَلا تَمَسّوها بِسوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذابٌ أَليمٌ)، ولكنّهم لم يتركوها ونادوا صاحبهم عاقر الناقة فعقرها؛ أي قتلها، فأرسل الله عليهم صيحةً في اليوم الرابع من عقرها فصاروا كالهشيم اليابس. وناقة صالح كما ورد في الآية هي ناقة الله -تعالى-، وهذه إضافة تخصيص وتعظيم، لأنه -تعالى- أوجدها بلا صلب ولا رحم، وكانت تأكل

من أرض الله كيفما تشاء، ولكن قوم صالح خالفوا أمره وذبحوها وعقروها، مع أنها آية ومعجزةً ودليلاً على صدق نبيّهم صالح -عليه السلام-.

❍نهاية قوم ثمود:

⇦ إنّ في قصة ثمود آيةً وعبرةً لمن كان له قلبٌ سليم، إذ قال لهم الله -تعالى- لهم أن يتمتّعوا وينتظروا ثلاثة أيام، فقال -تعالى- واصفاً حالهم بعد عقر الناقة: (فَعَقَروها فَقالَ تَمَتَّعوا في دارِكُم ثَلاثَةَ أَيّامٍ ذلِكَ وَعدٌ غَيرُ مَكذوبٍ)، وكان الوعد والوعيد لهم بالهلاك، لأنهم عتوا عن أمر الله -عز وجل-، ولم يطيعوا أمره، فأرسل الله -تعالى- عليهم صاعقةً من السماء، وقيل إنها صيحة، أو نارٌ من السماء، ورجفت بهم الأرض، وأهلكهم الله جميعاً وهم ينتظرون وقوعها، فلم يجدوا مفرّاً من وقوع العذاب عليهم، فهو وعد الله -تعالى- وهو وعدٌ غير مكذوب.